من هدى الإسلام

٤

التفسير الموضوعي لنهج البلاغة

القسم الأول

السيد محمود الهاشمي

Hāshimī

السيد محمود الهاشمي

التفسير الموضوعي

لنهج البلاغة

الألهيات .. وما وراء الطبيعة

- الواجب تعالى وصفاته
- المعاد .. ومراحل المعاد
- عالم الغيب .. ومخلوقات عالم الغيب

الواجب تعالى وصفاته

* الدلالة على الخالق

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : التفسير الموضوعى لنهج البلاغه
المؤلف : السيد محمود الهاشمى
اصدار : مكتب السيد محمود الهاشمى
عدد النسخ : ٤٠٠٠
المطبعه : نمـــونه

الطبعه الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

المحتويات

الموضوع | الصفحة

تقديم

الحديث حول السِّفر الخالد ، لأمير البلاغه ، وسيّد نهجها ، حديث انتهال واقتباس ، ٠٠ انتهال من فيض العطاء ، واقتباس من قداسة السجل لامام صاغته السماء بامعان ، ومنحته لمتاهات الأرض ، ليكون أمير الهادين لسناها ولقبسها الخالد .

وقد جاءت هذه النفحات ، ترجمانا لقداسة سرّه وعظمة معناه ، ذاك السّر والمعنى ، الذى ارتبط بالذات الالهيه ارتباط العاشقين ، الذين هاموا فى الحبيب الأوحد ، فكان اعتقادهم وسلوكهم ربانيا ، ٠٠ سالما من أدران الماده ، وخبائث التراب ٠

وان كان ماوصل من عطائه للرساله وللانسانيه ، غيضا من فيض ، تناقلته الصدور الامينه ، والضمائر الصالحه ، لتحفظه من كيد المعادين ، ولتصون الامانه ، ولترعى الثقل الكبير ، لتسعد البشريه بعدها بهذه النفحات التى تمثل معالم صادقه ، لمناحى الرساله

الالهيه ، .. فقد طوق هذا الغيض ، - **ناهيك عن الفيض** - الدنيا بعطائه ، وأعطى للحياه بعدها الحقيقى فكان القبس الذي يدلّ السائرين لمراتب الكمال ، والشهاب الذى يخط لهم المسار ضمن متاهات الحياه .

وعموما ، فان الحديث حول نهج البلاغه ، سفر الامام الكبير ، يمتلك - أساسا - بعدين :

- البعد الرسالى
- البعد التربوى

أما الأول : فلعل أهم معطيات ماجادت به قريحه امامنا أمير المؤمنين (ع) وترجمتها سيرته المباركه ، تتمثل فيما يلى :

أ - ان مجموعه خطب الامام ومواعظه وكلماته ، تمتلك بعدا متقدما فى عملية الفهم الصحيح والكامل للقرآن وللسنه النبويه الشريفه من خلال ماتخطه من مسار واضح للمفاهيم وتفاعلها مع الحياه .

ب - ان نهج البلاغه يعتبر "بحق" ميزانا يعرض عليه مااختلف فيه من مسائل الشريعة والدين ، فى عملية الصياغه النهائيه للمفهوم الاسلامى الأمثل .

ج - ان نهج البلاغه ، ينظم علاقه الانسان بالله سبحانه

وعلاقته بأخيه الانسان ، وبالوجودات الاخرى ، عن طريق طرحه الدقيق لهذه المفاهيم والوجودات .

واما معطيات البعد الثاني (التربوى) فلعلها تتمثل فى :

أ — يعطى التصور الكامل لخطوط التربيه فى النفس والمجتمع من خلال عرضه المتكامل لكل جزئيات المفاهيم الحياتيه المؤثره فى المسيره الانسانيه .

ب — يحدد صيغه كل مسلك من مسالك الصلاح والاستقامه ، ويدلّ السائرين على مداخلها ، لترتسم بين يدي الانسان فى خاتمه المطاف الصوره الحقه لجميع مناحى الحياه ، ولكل دروبها الخيّره أو المنحرفه ، ولتكون عمليه الاختيار بعدها ميسوره ، فلامجال عندها للّبس فى الظهور على مسرح الحياه .

ج — يمثل — بما يمتلكه من عطاءات — دستور عمل ، ووثيقه ينهجها كل الراغبين فى بلوغ منازل العلياء ، ومراتب الكمال ، لجليل ما تضمّنه من مناهج للبحث ، لمفاهيم اختلفت عندها الانسانيه ، وذهبت مناحى عديده فى فهمها لها .

وماتقدم لا يعدو فى الحقيقه سوى الواضح ، من عمليه الفهم والاستلهام ، وهو بعد جزء ضئيل مما قدّر لبنى البشر استنباطه من

بين ثنايا هذا الكتاب الكبير ولا عجب ، فهو الأثر العظيم ، والتركه الخالده لأعظم انموذج صاغته السماء ، بعد رسولها المؤيد محمد (ص) ، .. ذلك الانموذج الذى جسّد الاسلام والايمان فى تعامله مع مفردات الطبيعه والوجود ، وحقائق وأنوار ماوراء الوجود .

اننا يجب أن نتعامل مع نهج البلاغه بهذا النَفَس ، انه الكتاب الخالد ، الذي يهدي لسبل الصلاح والاستقامه ، والمتمم لعمليه الفهم للقرآن والسنه وهو بالتالى الامتداد الحق لتعاليم السماء السمحه .

***

لقد أوضحت محاضرات سماحه السيد محمود الهاشمى هذه أبعادا متقدمه فى عمليه الاستلهام من هدى نهج البلاغه ، وسلطت الاضواء على جوانب مهمه من موضوعاتها ، حول فكره وجود اللّه سبحانه وتعالى وصفاته ، والانسان والحياه والتأريخ ، ..

ولقد رأى النور ، القسم الأول من محاضرات سماحته ، ..
وسيتابع البحث فى الموضوعات الأخرى ، معتمدا المنهج الموضوعى فى التفسير والتناول ، دون المنهج التجزيئى .

وكلنا أمل ، أن تستعيد الأمه شخصيتها الرساليه المميزه ، عن طريق مطالعتها واهتمامها لفصول فكر وتوجهات إمامنا أمير المؤمنين (ع) .

فلقد انبعثت هــذه الأمــه من جديد ، لتشهد نهضه حضاريه كبرى ، ستكون معلما لكل الشعوب المتخبطه فى ظلمـــات الجهـل والانحراف ، ومنــارا صادقــا يدلّ القوافل الحائره لبنـى الانســان لمــواطن العدل والسعاده ..

ومن اللّــه نستمد العون ، وهــو ولى التوفيق

مكتب السيد محمود الهاشمى

تمهيد

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاه والسلام على سيد الخلق ، وخاتم النبيين ، محمد وآله الطيبين الطاهرين ·

انّ كتاب نهج البلاغه ، الكتاب الخالد بعد القرآن الكريم ، والسنه النبويّه ، يتلوهما في القصد والمنزله ، سواء في عمق محتواه ومضامينه ، أو في روعة نهجه وأدبه واسلوبه ، أو في تمكنه وقدرته الفائقه على صنع الانسان والانسانيه ، وتغييرها وتربيتها ، وفق اراده السماء ·

ولعمري ان العقل الانساني ليحتار أمام عظمة هذا السِّفر المجلّل ، ويستشعر الضآله والحوال قبال مسالكه وآفاقه الرحبه ، وأغواره الواسعه ، ويدرك العجز أمام هدى الوحي العظيم الذي استقى منه صاحب النهج ، فصاغ منه دروس البلاغه ، ومناهج حياة الانسانيه الحائره الخاسره ، لولا لطف السماء بها ورعاية الله لها من خلال أنبيائه وأوليائه بشكل عام ، والصفوه من خيرته المنتخبين محمد وعترته الطاهرين بشكل خاص .

ومدرسه نهج البلاغه كمدرسه القرآن الكريم ، مدرسه تربيه وهدايه للبشريه ، وصنع لبنى الانسان ، تسعى لاعدادهم من أجل تجسيد مبدأ الخلافه العظمى فى الأرض · ومن هنا كانت موضوعات هذه المدرسه ومناهجها تربويه وحضاريه ، تناجى الروح البشريه ، وتناغى العقل الانسانى وترفع الحجب عن القلوب ، لتشاهد الحقائق الكبرى ، وتبصر النور الذي هو سرّ الوجود وجوهره ·

فهى ليست دروسا فنيه تجادل المصطلحات أو التنظيرات العلميه ، التى وضعتها العقول البشريه للتعبير عن لغتها ورؤيتها المحدوده ، كما انها لا تبحث عن القوانين الطبيعيه التى لابد ان يهتدي اليها الانسان بشكل طبيعى من خلال معاناته مع الطبيعه ، وتجربته لنواميسها ، وانما هى دروس المعرفه الحقيقيه ، ومناهج صنع الكمال الانسانى ·

***

ولابد من الاشاره هنا ، الى أن نهج البلاغه ، لم يكن كتابا قد وضعه مؤلفه على شكل تأليف متناسق الاجزاء ، مترابط الجوانب ، دفعه واحده ، وانما هو مجموعه خطب وكلمات ورسائل ، صدرت عن الامام (ع) ، خلال سنين عديده من عمره الشريف ، وحياته الاجتماعيه والسياسيه ، التى عاشها وتحمّل فيها ماتحمّل من صنوف البلايا ، وواجه ماواجه من ألوان المحن والمصائب الاجتماعيه والسياسيه ، وهو

يكافح في كل ذلك ، ويجهد في تأسيس معالم الاسلام ، وترسيخ دعائمه ، وصيانة تجربته عن الانحراف الخطير الذي بدأ يهدده بعد رحيل صاحب الرساله العظيم محمد (ص) .

ورغم ذلك ، نجد أن الخطب والمواضيع التى صدرت عن الامام ، وفى مناسبات شتى ، ومراحل مختلفه من حياته ، ذات منهج موضوعى موحّد ومتناسق ، ليس فيها أدنى اختلاف ، بين أوّلها وأوسطها وآخرها ، بل كلها تعبر عن تلك الروح الربانيه الكبيره الفريده ، وبمنزله واحده من السمو والرفعه والاعجاز ، .. نسجه ونسقه واحد ، لاتجد فيه اختلافا لافى تصويره للمفاهيم والمبادئ ، ولا فى وحدة الهدف والغايه له ، بل يشترك فى وحدة الموضوع ، ووحدة الهدف ، ويستعمل نسقا واحدا فى صياغته للفكره ، ويعتمد ذات الخيوط فى نسجه لمفردة تربوية أو اصلاحية أو رسالية .

***

وبالرغم من ان شيعة أهل البيت (ع) ، هم الامتداد الطبيعى لمدرستهم المباركه ، والفروع الاصيله لتلك الشجره الطيبه ، التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، .. الا ان قدر هذا الكتاب الكبير ، لايزال مجهولا عندنا أيضا ، ولعله أصبح مهجورا فى بعض الاوساط ، ولدى بعض الطبقات ، مع ان هذا الكتاب الخالد ينبغى أن يحظى وان يُتلقّى بالتداول

والتدارس ، وتعلّم مضامينه والغور فيها ، لاستخراج كنوزه ولآليه كما حدث ذلك الى درجه ما وان لم يكن بالمستوى المطلوب بالنسبه الى القرآن الكريم ٠

ولعمري ان كتاب نهج البلاغه ، وحده ليكفى عند طرحه وتبيين مافيه ، وتوضيح معالمه بصوره صحيحه ، ان يشكّل أقوى دليل ودليل موضوعى على عظمة صاحبه وامتيازه ، وعلى امامته وعصمته ، فان ماجاء فيه من جليل المعانى ، التى هى امتداد لمعانى القرآن ، وتفسير لسرها وجوهرها لكفيل باثبات انه فوق كلام المخلوقين ، ودون كلام الخالق ، وانه لا يمكن أن يصدر الاّ من مصدر فوق طاقة عقل الانسان الاعتيادي فهو مستقى من مصدر الوحى والسماء ، وينبئ عن عالم الغيب ، والسرّ الالهى الكبير ، وبذلك يشكّل دليلا عمليا أيضا على صحه انتساب مافى هذا الكتاب ، ولو اجمالا ، الى الامام (ع) ، علاوه على الادله والمصادر التأريخيه التى لامجال للتوسع فى استعراضها وبحثها ٠

منهجية البحث

الاستفاده من نهج البلاغه يمكن أن تكون فى منهجين :

اولاً ـ المنهج الموضوعى
ثانياً ـ المنهج التجزيئى

فيمكن الاستفاده من عطاءات نهج البلاغه ، استفاده موضوعيه ، بأن تقسّم الموضوعات والأبحاث التى يتعرض لها الامام (ع) فى نهج البلاغه الى مواضيع متعدده ومختلفه ، ويُبحَث فى كل موضوع بشكْل مستقل ، ويُحاوَل تجميع كلمات الامام (ع) التى قالها ضمن خطب وكتب ومواعظ متعدده حول ذلك الموضوع ، فتُخْرَج ويستفاد منها تلك النظريه الموضوعيه فى مختلف الحقول والمجالات .

أما الاستفاده الثانيه ، أن تؤخذ كل خطبة بالتفسير ويُبين ما فيها من الحكم والمعارف . وقد رجّحنا المنهج الموضوعى فى عمليه

التفسير والاستفاده والاستلهام من هدى هذا الكتاب الخالد ، بما يتمتع به من ايجابيه وسعه ·

عناوين البحث

انطلاقا من المنهجيه الموضوعيه فى تناول عطاءات نهج البلاغه ، يمكن تصنيف عده مواضيع رئيسيه تأخذ صفه البحث فى عرضها وبيانها، وهذه المواضيع هى :

* آلالهيات وما وراء الطبيعه .
* العباده والسلوك الى الله .
* الانسان والمسؤوليه .
* الرسول والرساله .
* الامامه والخلافه .
* الاسلام والشرائع .
* المواعظ والاخلاق .
* السنن التأريخيه .

* امور السياسه والرعيه واداره الحكم .
* الاخبار عن الغيبيات تحت عنوان الملاحم .

ماتقدم جزء من عمليه الاستلهام المندرجه ضمن الاستفاده الموضوعيه لنهج البلاغه ، وهناك العديد من الابواب تدخل ضمن هذه العناوين العامه . سنتعرض لبيانها بشكل تفصيلي ان شاء الله تعالى .

المبحث الأول

الالهيات .. وما وراء الطبيعة

لمحة تمهيدية

يتعرض الامام فى هذا الباب الى فكرة اثبات وجود الله سبحانه وتعالى والى صفاتــه وعدله وعظمته وقدرته ، وكيفيــة خلقه للعالم . ويتعرض لعالم الغيب وعالم الملائكه .. عالم الموت وما بعد الموت .. عالم الحساب .. عالم المعاد .. عالم الجنه والنار ، ويتعرض الــى كثير من الشؤون المرتبطه بما وراء الطبيعه وبعالم الغيب .

ولعل الامـــام (ع) فى كل خطبة يبدؤهـــا بشيئ مـــا يرتبط بالالهيات ، وهذا التأكيد من لدن الامام (ع) فى توضيح مسائــل الغيب وخصوصياته يأتى فى الوقت الذي كان مستوى ادراك الامــــه لهذه المسائل ادراكا (منخفضا) ، فالامام كان يعيش فى وسط قد مضى على نزول الوحى فيه مده وجيزه ، لم تكف لقمع جذور الوثنيــــه فيه ، فالفتره الزمنيه التى عاشها رسول الله (ص) ، كانت حبلـــى بالاحداث السياسيه والاجتماعيه والعسكريه ، لم تكتمل الصوره بشكلها الكامل لدى الذهنيه العامه حول الله سبحانه وتعالى وعوالم الغيب،

نعم مجموع الطليعيين الرساليين ممن تتلمذوا واهتموا بالتلمذه على يد رسول الله (ص) ، لعلهم ادركوا الحقيقه واستطاعوا ان يتعرفوا على النظريه القرآنيه عن الله سبحانه وتعالى ،وعن صفاته ، وانه ليس كمثله شئ ، وانه ليس بجسم ، الا ان عموم الناس والاقوام التى كانت تدخل فى الاسلام شيئا فشيئا كانت لا تزال رواسب الوثنيه والشرك مرتكزه فى نفوسهم وعقولهم ·

من هنا جاء تأكيد الامام وتوضيحه لمعالم التوحيد الحق ، خوفا على الذهن البشري من أن ينتكس كما انتكس من قبل ، فالديانات المسيحيه واليهوديه وغيرها ، كانت قائمه فى مناطق تعبّر عن قمه الحضاره ، وقد انتكست فى هذه النقطه ، فاليهود يرون العزير ابن الله ، مع ان ديانتهم ورسالتهم سماويه حقه ، أوضحت كل شئ ، مع ذلك لم يستطع الفكر اليهودي ان يتحرر من النزعه الجسميه الماديه ، وتشبيه الله سبحانه وتعالى بالمخلوقات ، وقد انتهى الامر ببعضهم ان يطلبوا من موسى (ع) ، أن يجعل لهم إلها كآلهه الوثنيين والمشركين ·

والمسيحيه كذلك ، لم يمكنها أن تتخلص أو تتحرر من هذه النزعه ، فاعتقدت بالاقانيم الثلاثه ، اعتقدت بان الله ثالث ثلاثه وان لله ابنا هو المسيح عيسى ابن مريم (ع) .

ان الذهن البشري لم يستطع ان يتخلص أو يتحرر من التمثيل

الحسّي المادي التجسيمي ، ولعل هذا التأثير ينشأ من النزعه الماديه للانسان ، كون بدايته بدايه ماديه جسمانيه ، فيحاول تشبيه كل شئ بالاشياء التى ألفها فى وضعه المادي ٠

ولم يصب هذا الداء الديانات فقط ، بل أصاب حتى الفلسفات الراقيه ، فالفكر والفلسفه الاغريقيه واليونانيه ، التى تعتبر فلسفه متكامله لم تتخلص من الاوهام ومن التجسيمات والتشويهات والمراتب التى وضعتها للخالق ٠

اذا فما قام به الامام (ع) فى هذا المجال ـ الالهيات ـ كان له الدور الكبير ، فى عمليه الصيانه للذهنيه البشريه من ان تنحرف ضمن متاهات التشبيه المادي وكان لكلماته الأثر الكبير فى تثبيت الفكر البشري على هذا المستوى الرفيع من المعرفه بالخالق ، هذا المستوى الذي نعرفه اليوم وتعرفه مدارس التوحيد فى العالم ٠

نحن مدينون ، والفكر الانسانى مدين الى الامام (ع) فى تحرره من عوالق الشرك والضلال ، فعندما نراجع الفلسفه الاسلاميه ، والفكر الكلامى نجد ان مدارس الفلسفه كلها تنتهى الى الامام(ع) ٠ فلقد كان (ع) المعلم الأول للمسلمين بعد القرآن الكريم والرسول (ص) وهو الذي ثبت أصول التوحيد ، وأسس الفلسفه الالهيه الصحيحه ٠

فليس غريبا على ضوء هذا التحليل ، أن نجد نهج البلاغه ،

يؤكد كثيرا على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى وصفه بصفات الكمال والجلال ، وعلى نفي التجسيم والتحديد له ، لِما يخشاه على الذهن الانساني من أن ينتكس . فعمليه افهام البشريه بهذه الحقائق ليست بالسهله، ويصعب على البشريه تصور عالم الغيب ، وفهم نواميس عالم الغيب . ولذلك كان الامام (ع) يعاني عندما كان يريد ان يشرح هذه المقولات ، ويوضح هذه المفاهيم الغيبيه للامه .

***

نكتفي بهذه اللمحه العامه عن مدى أهميه هذا الموضوع ، وكيف ان الامام (ع) كان حريصا على تعميق هذا الجانب بالذات في الضمير الانساني بشكل يمنعه ويصونه في المستقبل من أن ينتكس من جديد، وينتهي الى ما انتهى اليه أصحاب الديانات الحقه ، فضلا عن أصحاب المدارس الفلسفيه ، وهذا الموضوع ـ الالهيات وما وراء الطبيعه ـ بذاته يمكن تقسيمه وتصنيفه الى عدد من المواضيع تدخل ضمن هذا الاطار العام نذكر منها :

* الواجب تعالى وصفاته .
* عالم الغيب ومخلوقات عالم الغيب .
* المعاد ومراحل المعاد .

وسنتناول هذه المواضيع الثلاثه المتقدمه ، بالبحث والتفصيل .

الباب الاول

الواجب تعالى وصفاته

ويشتمل على عدة فصول :

الدلالة على الخالق

توحيد الله

تنزيه الله عن صفات المخلوقين

العدل الالهي

القدرة الالهية وكيفية خلق العالم

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الدلالة على الخالـق

يتعرض الامام (ع) فى نهج البلاغه الى موضوع اثبات الصانع والدليل على وجوده سبحانه وتعالى اجمالا واشارة ، أي انه لا يتوسع فى سرد الادله على اثبات اللّه سبحانه وتعالى ، بل يقتصر على الاشاره "فى الواقع" الى مناهج الاستدلال لاثبات الصانع ، باستثناء منهج واحد يستخدمه كثيرا ، ويشير اليه فى أكثر من خطبه وكلام وهو المنهج الاستقرائى ٠

بالنسبه الى اثبات الصانع ، هناك ثلاثه مناهج يمكن للذهن البشري أن يستدل من خلالها على وجود اللّه سبحانه وتعالى ، وهى : –

١ – المنهج الفطري ٠

٢ – المنهج الاستقرائي ٠

٣ – المنهج الفلسفي ٠

هذه هي مناهج الذهن البشري لاثبات الله سبحانه وتعالى ، ونحن نستطيع من خلال سيرنا في آفاق نهج البلاغه . أن نلمس تلميحات الى هذه المناهج الثلاثه ، وهي على مستوى اشارات ، لا على مستوى بحوث اصطلاحيه ، فالامام لا يستخدم الاصطلاحات التى يستخدمها علماء الكلام مثلا ، أو الفلاسفه لاثبات الصانع ، لان نهج البلاغه لم يكن كتابا علميا بهذا المعنى ، أو فلسفيا كلاميا ، انما كان مجموعه نفثات ونفحات ربانيه وروحانيه صدرت على لسان الامام (ع) أو من خلال قلمه المبارك عندما كان يكاتب عماله وولاة البلاد الاسلاميه ، ثم بعد ذلك نقلت من خلال الروايات والمأثورات ، فجمعها الشريف الرضى ، لتشكل ماده نهج البلاغه .

***

ومن الواضح ان الامام عندما يخاطب الامه ، لابد وان يخاطبها بمقتضى المناسبه التى من اجلها يريد ان يتكلم ، فهو يراعى مستوى ادراك الامه وفهمها ، وكذلك مشاعرها ، من هنا كان لا يتكلم بلغه الاصطلاحات العلميه والكلاميه والفلسفيه ، الا ان روح المطلب تكون موجوده في كلامه ، دون أساليب الاداء والتعبيرات العلميه .

اضافه الى نكته اخرى ، وهي نكته مشتركه بين القرآن الكريم والسنه النبويه الشريفه ونهج البلاغه ، وهي ان الانبياء والأئمه وكل الربانيين ، لم يكن همّهم وهدفهم نشر العلوم وتفصيل المسائل

العلميه والنظريه فى أي حقل من الحقول ، بل كان هدفهم نشر العرفان ، وصنع الانسان ، وجعله يتعرف على الحقائق الكبرى بروحه وبصيرته وفطرته ·

لم يكن الانبياء والأئمه متخصصين وفلاسفه ، بل كانوا رجال هدايه وعرفان وصلاح ، ولم يكن هؤلاء علماء بمعنى يعلّمون الناس الفلسفه أو مصطلحات الفلسفه البيزنطيه أو الاغريقيه أو فلسفه المشّاء ، أو الفلسفات الاخرى ، بل كانوا يبغون صنع الانسان من الداخل بما يجسّد خلافته لله سبحانه وتعالى فى الارض ·

فاذا كان نهج البلاغه كتاب صنع وهداية وعرفان للانسان ، فحينئذ لاينبغى ان نتوقع " ان نواجه " فى كلمات الامام (ع) نفس المصطلحات الفلسفيه أو الكلاميه ، التى نجدها فى علم الكلام أو أي علم آخر ، الاّ أن روح الأدله ، وروح هداية الانسان الى المعرفه الحقه ، والى الله سبحانه وتعالى ، موجوده فيه · يعنى مايكون واقعا وبالحمل الشائع ، باصطلاح الاصوليين مما يوصل الناس الى الايمان بالله سبحانه وتعالى والتصديق به ، والاذعان لعظمته وتوحيده وتنزيهه فى صفاته واسمائه عن صفات المخلوقين · روح هذه المسائل ، وروح هدايه الانسان ، وايصالها الى هذه الدرجه من الكمال ، نجدها فى نهج البلاغه ·

اذا واقع وروح هذه الأدله ، موجودان فى نهج البلاغه رغم ان

المصطلحات والصياغات والأدبيات العلميه والكلاميه والفلسفيه غير موجوده ، فبرهان الدور والتسلسل لا نجده فى القرآن الكريم ولا فى نهج البلاغه لان هذا العنوان اصطلاح خاص ، أو برهان النظم لا يكون موجودا ، ولكن واقع التأكيد على بدائع صنع الله سبحانه وتعالى ، وشرح آياته الجليله فى الخلق ، نجده فى القرآن الكريم وفى نهج البلاغه ، فهو ينبّه الذهن البشرى ، ويأخذ بالفهم والادراك الانسانى ، ويجعله يبصر ويشاهد آيات الاعجاز فى الكون وفى الخلق وفى الوجود فيؤمن ويذعن بوجود الله القادر المتعال .

بعد هذا العرض السريع نأتى لبيان الأدله الثلاثه لاثبات وجود الله تبارك وتعالى ، وكيف أن الامام (ع) يتعرض الى حقيقه ذلك الوجود من خلال خطبه وكلماته .

المنهج الفطري

يعتبر المنهج الفطري ، من أقدم وأسهل ألوان الاستدلال والاثبات على الصانع سبحانه وتعالى . ويراد به ، ان الانسان بحسب فطرته ، وبحسب ذاته ، له اذعان ، وله يقين وتصديق ذاتي بوجود الله سبحانه وتعالى ، وان هناك مبدأ فوق نفسه ، فوق صاحب الفطره ، هذا المبدأ هو الذي خلق هذه الفطره ، وما يظهر من آثار الخلق ، ما هي الا افاضات منه جل شأنه ، وان هذا الصانع قد أودع في الذات الانسانيه الايمان به ، والتصديق والاقرار له بالربوبيه .

والقرآن الكريم يشير الى هذه الحقيقه ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ..)) وفي الروايات الصادره عن الأئمه (ع) ، جاء في تفسير هذه الآيه ، ان الله سبحانه وتعالى أخرج من ظهر آدم ذريّته الى يوم القيامه وخرجوا كالذر ، فعرّفهم نفسه وأراهم صنعه ،

ولولا ذلك لم يعرف أحد ربّه .

ومن الروايات الصادره عن النبى (ص) قوله: (**كل مولود يولد على الفطره**) .

وقد فسرت هذه العباره من قبل الائمه (ع) بان المولود يولد على معرفه الخالق .

ازا فالايمان بالله سبحانه وتعالى ، والاقرار له بالربوبيه ، اقرار مودع فى فطره كل انسان ، وان هذه الفطره قد أخذ منها الميثاق على ذلك .

وفى الامكان الاستفاده من هذا الدليل لاثبات الصانع جلّ شأنه ، بأحد نحوين :

النحو الأول ــ من خلال التجربه الوجدانيّه الشخصيّه للانسان ، فان كل انسان يمر فى حياته بمجالات وجدانيه خاصه ، تتجلى فيها فكرة وجود الله سبحانه وتعالى لفطرته وتحدث عنده حاله اليقين والجزم الفطري بوجود الله سبحانه وتعالى وتلك الحالات كثيرا ماتحصل لدى الانسان فى موارد الضيق والعجز والخوف ، حيث يتوجه الى مبدأ كامل قادر فوقه وتحصل لديه حاله فطريه من الايمان بالله سبحانه وتعالى ،

هذا اللون من التجارب الوجدانيه والشخصيه يشير اليها القرآن الكريم فى موارد عديده ، فى وصف حالات الانسان وخصوصا الكفار

فيقول ان هؤلاء الذين يكفرون ويجحدون هم أيضا فى حالات معينه عندما تنعدم لديهم الاسباب والحيل يتوجهون الى الله سبحانه وتعالى ويؤمنون ويتيقنون به . ومن تلك الحالات ابتلاؤهم بالغرق فى اليم ، حسب الاشاره القرآنيه ، حيث انهم فى خضمّ تلك الحاله ، وحيث انعدام الوسائل والحيل وسبل النجاة والخلاص لديهم ، يتوجهون الى الله سبحانه وتعالى توجها فطريا ، ليلتمسوه الخلاص ، فلما نجاهم الى البر ، حيث الطمأنينه والخلاص فاذا هم ينسون تلك التوجهات والدلالات التى كانت مثاره فى انفسهم ، (فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم الى البرّ اذا هم يشركون) . (العنكبوت : ٦٥)

حالات عجز الانسان وانعدام الوسيله لديه فى الحياة ، تثير فى نفسه هذه الفطره ، وتشعره وتلح عليه ، بان هناك مبدأ فوق هذه الظواهر والمسميات ، يمكنه ان ينجيه ويرفع به عن مستوى هذا البلاء .

كما ان درجه نقاء الفطره الانسانيه ، قد تكون متقدمه ، مالم تدنس هذه الفطره بفعل الخبائث والأدران الدنيويه .

قد تبقى ـ الفطره ـ بدرجه من النقاء والسلامه ، دون ان تتناولها أيدي الانحراف ، فتقضى على الوجه المشرق لها ، ولتفسد فيها معانى الصلاح والاستقامه ، ..

الفطره مالم تدنس ، تبقى بنفس الحاله من الطهر ونفس الحاله

من الدلاله على وجود الله سبحانه وتعالى ، أي تبقى فطره إلهيه ، سماويه لم تتلوث بحالات التراب ، ..

والقرآن الكريم يشير الى حقيقه أن الفطره الانسانيه تذعن بوجود الله سبحانه وتعالى ، تلقائيا ، ومن نفسها ، دون الحاجه الى الاستدلال ، لان الميثاق قد أخذ منها حين خلقها ، ..

(واذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامه انّا كنّا عن هذا غافلين) (الأعراف : ١٧٢)

والامام على (ع) - فى نهج البلاغه - يشير الى هذه الحقيقه أيضا ، ان الفطره بذاتها تدرك الحقيقه الالهيه ، وتتذكر ما أخذ منها من الميثاق ، من قبيل ماجاء فى خطبة الانبياء ، وهى من جلائل الخطب ، يقول الامام (ع) :

(فبعث فيهم رسله ، وواتر اليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكّروهم منسي نعمته)

هنا يشير الامام (ع) ، ان الفطره الانسانيه لها ميثاق مع الله سبحانه وتعالى ، هذه الفطره التى خلقها وأوجدها فى الذات الانسانيه ، قد أعطت ميثاقا لله سبحانه وتعالى . يأتى الأنبياء (ع) ليأخذوا ميثاق الفطره ويستأدوه ، ويذكّروها ..بأنك أيتها الفطره

قـد أعطيت هذا الاذعان والاقرار للّـه سبحانه وتعالى حين خلقك لكنك قد نسيت ذلك ، نتيجه ماابتليت به في هذه النشأه الماديه من الجهالات . . .

نسيت الفطـره الميثاق الالهي ، وقد غشيتها حجب الدنيـا فحالت بينها وبين الحقيقـه .

فيأتي الأنبياء (ع) لينبهوا هذه الفطره وليحفظوها وليرفعـوا هذه الحجب عنها ، حجب الضلالات والجهالات لتبقى مشرقه بنـور ربّها ، عامره بالايمان ببارئها ، تهتدي بسبيل الحق دون دروب الانحراف . وهذه الفطره وهذا الميثاق وهذه الامانه الكبرى ـ مهما شئت فعبّر ـ هي التي تشير اليها تلك الآيات والروايات وهـي مودعه من قبل اللّه سبحانه وتعالى في خلقة الانسان ـ عندما خلقـه وسواه ونفخ فيه من روحه ـ فهي من مستلزمات تلك النفخـه والنفحه الربانيه التي أودعت في صميم هذا الانسان فأصبح بذلك متطلعا الى مبدأ الكمال والى مبدأ تلك النفحه وهو اللّه سبحانه وتعالى مصدر كل الكمال ومبدئه ومنتهاه .

***

النحو الثاني ـ من الاستدلال والاثبات الفطري لوجود اللّـه سبحانه وتعالى ((دعوى البداهه)) أي ان اللّه سبحانه وتعالـى

بديهي الوجود والظهور ، **بل هو الظاهر** وليس غيره ظاهرا ٠

انّ الانسان منذ أن يولد ، يولد فاقدا للحس والعقل والادراك الفعلي وان كان مزودا بالقوه بالادراك . حينما يولد يألف ما حوله من الكائنات والموجودات ، فهو ينمو ويكبر وقد ألف هذه الموجودات جميعا وكأنها أمور طبيعيه مألوفه لديه لايدرك أنها تدل على خالق لها ، وموجد مبدع ابتدأها . . .

الانسان حينما يعثر على ورقه في منطقه ما ،ومكتوب فيها قصيده من الشعر الموزون ، لايشك ـ بمجرد أن يراها ـ ان هناك مَنْ كتبها ونظم أبياتها ، وانها لم تأت جزافا بل أن هناك مَنْ خطها ، ممن كان عالما واعيا وعارفا باللغه والشعر .

أي ان الانسان هنا يرفض الصدفه ، في عمليه ايجاد هذه الكتابه ، بل يؤمن ان لها مسببا وموجدا ، قد خط حروفها ، وحاك عباراتها ، عن قصد وادراك ووعي ٠

ومايوجد حول الانسان من الموجودات والكائنات البديعه الدقيقه ، كلها في درجه من التعقيد والابداع والدقه ، مايفوق كل مايجده الانسان من وجودات غير طبيعيه كتلك الورقه في تلك المنطقه ، . . الآ انّ هذه المخلوقات والموجودات التي

تظهر وجود الله سبحانه وتعالى ، وتدل دلاله واضحه عليه ، قد ألفها الانسان منذ الصغر ، واعتادها وكأنها أمور طبيعيه ، فعندما يقف أمامها ، لايحس ولا يتوجه ذلك التوجه الذى يجده فى نفسه حينما يجد شيئا غريبا من قبيل هذا القرطاس أو هذه الكتابه التى وجدها فى تلك المنطقه ، . . لماذا ؟ لأن هذه الكتابه لم يألفها وهو صغير .

ولهذا قال بعض الحكماء : انّ الانسان اذا بقى لايدرك شيئا ـ الى ان تكتمل لديه قوه الادراك ـ وفجأه يؤتى به الى الدنيا ويدرك ما فيها من المخلوقات والموجودات ، فأول نظره يلقيها على هذه الموجودات من حوله تحصل لديه حاله اليقين والايمان بان اللّه سبحانه موجود. لأن جميع ما فى هذا العالم من الكائنات والموجودات كلّها تنادى وتدلّ دلاله صريحه وتظهر وجود اللّه تبارك وتعالى بالبداهه ، فكل ما هنالك يدلّ عليه ويظهره فى الواقع لأنها مظاهر منه واشراقات وافاضات له . اذا هى تدل عليه قبل أن تكون لها دلاله على نفسها ، تدل على بارئها وخالقها ، . .

الاّ أن هذه الحاله وهذه الألفه التى ينمو الانسان من خلالها ، فى هذه النشأه الماديه ، تمنعه فى كثير من الأحيان ، وتوجب حاله من الغفله والألفه المانعه لديه عن التوجه الى هذه الحقيقه الواضحه البديهيه .

يقول بعض الحكماء والعرفاء ، ان من عوامل عدم ظهور ووضوح بديهيه وجود الباريء عزّ وجل عند كثير من الناس هو ان الاشياء تعرف باضدادها فالحاله الاولى ان يكون الشئ خفيا ونتيجة خفائه المطلق لا يدركه العقل الانساني اما الحاله الثانيه التي تؤدي الى عدم السرعه في الادراك فهي الظهور المطلق فلو كان هناك شيئ ما له ظهور مطلق يكون هذا الظهور سببا في عدم السرعه في الادراك وان الله سبحانه وتعالى ، كله ظهور ونور ووجود " بحسب الحقيقه " ولا توجد حاله من الحالات التي لا يكون موجودا فيها ، لكي تتمايز حاله الوجود عن حاله العدم ، ومادام الامر كذلك ، فحينئذ قد لا يسرع الادراك والتيقن والتصديق بوجوده لدى الانسان ٠

الانسان انما يدرك النور مثلا من حيث انعدامه ، ومن حيث الدخول في حاله جديده ، حاله انعدام النور ـ أي الظلام ـ وهكذا التمايز بين الليل والنهار ، ٠٠ كذلك الله سبحانه وتعالى ٠ فالانسان عندما يتأمل وينظر الى الكائنات والموجودات يجد مظهرا من مظاهر الوجود في الواقع ، يجد افاضه من الافاضات التي تدل على فاعلها وموجدها وبارئها ، قبل ان تكون داله على نفسها ٠

ولا يمكن ان تكون هنالك حاله تنعدم فيها كل هذه الموجودات ـ فهذا معناه انعدام وجود الله سبحانه وتعالى ـ وهو محال فلشده نوره ٠٠ وظهوره على الوجود ، تكون هناك حاله التوقف

والتأمل ، .. والاّ فمسأله وجود اللّه سبحانه من المسائل الواضحه والبديهيه التى لابد أن يذعن لها العقل بمجرد أن ينظر الانسان الى نفسه أو يتجاوز دائره نفسه الى الموجودات .

اذا فالنحو الثانى من المنهج الفطري لاثبات اللّه تعالى ،دعوى البداهه والظهور ، والواضح ان كل ما فى الكون من موجودات ومخلوقات ــ قبل ان تكون داآله على نفسها ــ تدل على خالقها وبارئها ، وهذا المعنى نجده فى جمله من كلمات المعصومين ((عليهم السلام)) . فالامام فى نهج البلاغه يقول :

(عجبت لمن شكّ في الله وهو يرى خلق الله)

وقال فى موضع آخر :

(ان اللّه تجلّى لعباده من غير ان رآوه ، وأراهم نفسه من غير آن يتجلى لهم)

فهذه العبارات تدل على ان اللّه سبحانه وتعالى يدرك ويعقل ويصدّق بوجوده من غير رؤيه حسّيه ، باعتباره منزّها عن الاحساس به ولكنه متجلّ وظاهر بنوره ، فانه لانور الاّ نوره ولا وجود الاّ وجوده الحق ، فهو ظاهر من غير رؤيه . ومن شده ظهوره ((كالمرئى)) ، ولكن لا بالتجلى فى مكان ومحدوديه لانه لا يشغله شأن ولا تحويه النواظر . وقد ذكر (ع) فى تعبير آخر :

وللامام الحسين (ع) فى دعاء عرفه كلمات ومقاطع تدل على هذا المنحى الثانى من الاستدلال على وجود الله سبحانه . يقول الامام (ع) فى ذلك الدعاء المبارك :

((كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هوالمظهر لك ،متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك. عميت عين لاتراك ولاتزال عليهارقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيبا))

فالامام هنا يريد اثاره الفطره الانسانيه ، أي أنّ الله سبحانه وتعالى له ظهور ووضوح بالبداهه لا يحتاج معها الى الاستدلال والاثبات ، فالذى يريد الاستدلال عليه ، ممكن من الممكنات بذاته وكل ممكن يحتاج الى عله ، . . هذا استدلال الممكن على الواجب ، وهذا الممكن هو فى وجوده مفتقر الى الواجب ، فاننا عندما نرى شخصا يتحرك ، ندرك اولا شخص المتحرك من خلال حركته ،ثم نلتفت الى حركته .

فعالم الامكان ، وعالم الموجودات والخلائق ـ فى الواقع ـ

ليس هو الوجود الحقيقى ، بل هو الوجود الظلّى .. المندكّ .. المفتقر ، وهو افاضه من مبدأ الخلق ومصدره .

فالله سبحانه وتعالى له الوجود الاقوى .. الوجود الذي هو الحقيقه والواقع والكنه والجوهر وماعداه ليس الاّ اشراقات وافاضات وظلال لذلك الوجود . فالامام فى هذا الدعاء يثبت هذه الحقيقه ويؤكد أنّ البارئ دائم الظهور ، ودائم النور ، ولا يعقل ان يوجد مكان لا يكون لله فيه ظهور ، فهو حاضر بالبداهه والوضوح ، فلا يحتاج الى أن يستدل عليه :

(متى غبت حتى تحتاج الى دليل)

***

بداهة ظهور الباري ومنازل الايمان في القلب

اذا كان الله – سبحانه وتعالى – بهذا المستوى من الظهور والحضور والبداهه ، فينبغى أن يكون للانسان مثل هذه الدرجه من المعرفه بالله تعالى وادراكه والتصديق به ، حيث لا يرى غيره ، بل يراه اينما توجّه ، بنحو يستقطب مشاعره وعواطفه ليجعله ينظر ويسمع ويعقل ويتحرك بحبه ونوره ، وليكون قبلته الدائمه فى التوجهات والآمال . والامام على (ع) يصرّح

(مارأيت شيئا الاّ ورأيت اللّه معه وقبله وبعده وفيه)

هذا النحو واللون من التوجه الى اللّه سبحانه وتعالى والحضور والصله به ، يمثل طرف المعادله السالفه ((بداهه الظهور)) والمعرفه الحقه له .

هذه المعرفه الحقيقيه ، والعرفان الكامل باللّه سبحانه يفتح للانسان آفاقا متقدمه عن الحقائق الكبرى ، ويدلّ بشكل أكبر وأعظم على شهود وتصديق باللّه ، بحيث لا يرى غيره ، ومايراه لا يعدو عرضا يراه من خلال اللّه — سبحانه وتعالى — .

والأنبياء والأئمه والأولياء الصلحاء امتازوا على غيرهم فى هذه الحقيقه ، اذ كان توجههم الى اللّه سبحانه ، لا يرون غيره ، وماعداه باطل وليس حقيقيا الاّ بمقدار مايعبّر عن وجود المبدأ ووجود الأصل والجوهر ، وهو اللّه تعالى . ومثل هذه المعرفه هى الحقّه ، وهى التى تريدها السّماء أن تتجسّد فى النفس الانسانيه كى تشقّ طريقها نحو مدارج الكمال ، ولتكون الأنموذج المحدود فى اخلاقها للاصل والجوهر اللامتناهى فى أخلاقه وصفاته وأنواره .

الانسان يدرك من خلال هذا النحو من المعرفه ، حقيقة الوجود وأهميته . فمن خلال المنظار الالهى ،تجعله يدرك أن الحقيقه والأصل والكنه انما هو اللّه — سبحانه وتعالى — وما يرتبط به ، وأما سواه

فلايعدو ان يكون شبحا وظلا ووهما ومظهرا وصوره ليس فيها أي محتوى ، ٠٠ لايعدو أن يكون افاضه واشراقه من المحتوى الحقيقى ٠

وهذه المعرفه والمشاهده بالقلب والعقل لله سبحانه هى منشأ تكامل الانسان وسيره نحو لقاء الله ، وهى التى جاءت من اجلها النبوات والرسالات والشرائع ٠ وهى بالتالى أعلى منازل الايمان ، وأرقى مدارج الكمال التى يمكن للانسان أن يصل اليها ٠

***

المحبة وليدة المعرفة

الانسان اذا ما أدرك هذا النحو من المعرفه الحقيقيه ٠٠ المعرفه التى بلغها الأنبياء والأئمه ــ وهذا محال بحسب الواقع ــ والتى جعلتهم لا يدركون غير الله ــ سبحانه وتعالى ــ ادراكا واقعيا وعقليا وعاطفيا • فان هذه المعرفه تولد حبا وتعلقا صميميا بالله ٠٠ حبا يمتلك محتوى الانسان ، ويأسر لبّه وقلبه ، وتجعل سجاياه وفق اراده الله سبحانه ، ليصبح منه واليه ، ذائبا فيه وفى نجواه ليرتشف من مناهل حبّه ، ما يطفئ سعير قلبه المحترق شوقا اليه، هذا الحب يتجسّد فى شخص المعصوم بشكل واضح ، وتظهره حالاته المختلفه ٠

فعندما يقول النبى (ص) للامام على (ع) :

(ماعرف اللّه الا أنـا وأنت)

يقصد هذه المرتبه من المعرفه ، لا المعرفه بمعنى اقامه الدليل والتصديق النظري على وجود اللّه سبحانه ، فانه تصديق اجمالي مبهم . وهناك تصديق وعلم حيوي يؤثر على مشاعر الانسان .. على عواطفه .. هذا الذي نجده عند المعصوم ، حيث يمكّنه من مشاهده حقيقه المبدأ ـ مشاهده قلبيه وعقليه ـ لذلك يصرّح الرسول الكريم (ص) : ان تلك المرتبه مختصّه بي وبك ياعلى . فلقد كانت لهما تلك الدرجه من التعلق باللّه تعالى ، الدرجه التى مابعدها درجه تعرف في قاموس المعرفه الانسانيه ومراتبها ومنازلها . فاذا توجّها لأداء عباده ما ، أخذتهما الصّفره .. واستعدا للصعقه ، واذا ماوقفا بين يدي حبيبهم الأوحد تراهما يذوبان فى بوتقة حبّه وذكره ، يستشعران طعم مناجاته بصدق .. ويفقدان بعدها مرتبه الاحساس بالدنيا وعوالقها ..

يفنيان فى قبلتهما التى وجّها قلوبهما شطرها .. لتأخذ بهما الى أجواء الطّهر والنقاء ، حيث النور الالهى .. واللّقاء الربّانى . هذه المرتبه من المعرفه التى تجعلهما لا يريان غير اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ ، هى قمة المعرفه الممكنه لهذا المخلوق، والتى ماوراءها مرتبه ودرجه للمعرفه واللقاء والدّنو منه تعالى ..

(ثم دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو ادنى)

اذا فهذه المرتبه من الحب ، تنشأ من تلك المرتبه من المعرفه . وكلما كانت المعرفه أعمق .. كانت المشاهده الحقيقيه والعقليه والروحيه لله ــ سبحانه وتعالى ــ أدق وأسمى ، وبالتالى نفس الدرجه من الحب والتعلق بالله تكون مترسخه فى الذات الانسانيه .

أما القلب الذي لا يعرف الله بتلك المرتبه ــ انما يعرفه معرفه اجماليه ــ سوف لا يكون فيه نصيب من الحب الحقيقى لله تعالى ، فتراه ترابيّ الطباع والمشاعر والآمال . لا تتسع دائره محبته ومعرفته عن هذا النطاق المادي ومايتصل به ، فيخلد الى الأرض دون السماء .

المنهج الاستقرائي

هو أحد مناهج الاستدلال على اثبات الصانع الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ وهو فى شيوعه ووضوحه يساوق المنهج الاول (الفطري) ٠ ومنحى هذا المنهج لاثبات الصانع ، يقوم على أساس الآيات والآثار التى تدل على الحكمه فى الصنع والتدبير فى الخلق ، والتى تدل بدورها على وجود الصانع (وجود الله سبحانه وتعالى) ٠

فالدليل الاستقرائى العلمى ، يساوق المنهج والاستدلال المنطقى الذي يواجهه الانسان حينما يثبت أيه حقيقه علميه أو نظريه تجريبيه ٠ فنحن نعلم أن العلوم والنظريات العلميه من المسائل التى تمتلك استدلالا يسمى فى علم المنطق وعلم الاستدلال (بالاستقراء والتجربه) ٠ أي مثلا : عندما أثبتوا أن الحديد أو الفلزات تتمدد بالحراره ٠

كيف تم هذا اللون من الاثبات لهذه الحقيقه العلميه ؟

أثبتوها على أساس مشاهدات وملاحظات واستقراء وتجربه .حيث جاءوا بقطعه من الحديد ووجهوا اليها الحراره مره ومرتين وثلاثـــا ، فوجدوها تتمدد في جميع المرات . فاستنتجوا من ذلك قانونا كليّا: هو أن الحديد يتمدد بالحراره ٠

هذا وأن جميع الخواص والقوانين الكيميائيه والفيزيائيه والفلكيـه والطبيعيـه ـ والتـى أصبحت اليوم مـن البديهيات والواضحـات والمسلّمات ـ منهج الاثبات فيها هو منهج الاستدلال العلمى ، أي (الاســتقرائـى)* .

ان جوهر الاستدلال بالملاحظه والاستقراء والتجربه ، يبتنـى : انه كلّما وجد الفكر البشري ظاهرتين متقارنتين ، احداهما مع الاخرى تتكرر ، بحيث كلّما وجدت الظاهره الاولى تحققت الظاهره الثانيــه

---

* كان التصور السائد فيما سبق ، ان المنهج الاستقرائى يختص باثبـات النظريات العلميه ، ومجاله الحقول الماديه التى يمكن مشاهدتها وملاحظه آثـارهـا ولا يمكن من خلال هذا المنهج اثبات وجود عالم الغيب والمبدأ الاول الذى هو مـا وراء الماده ٠ وقد وجد فى تأريخ العلم والفلسفه الكثير من الاتجاهات التى نـادت بالاقتصار على المنهج العلمى للاستدلال ، فاتجهت الى ان تنكر التوحيد ومبـدأ ماوراء الماده ، باعتبار ان المنهج العلمى يختص بحقل الماده والتجربه فقط ، . .

الآ ان سيدنا الشهيد الصدر ((رض)) فى كتابـه .الاسس المنطقيه للاستقـراء اثبت حقيقه قيّمه ومن اروع ماانتهت اليه المدرسه الاسلاميه ، وهـى ان المنهـج الاستقرائى ذاته يمكن ان يكون مصدرا لاثبات اللّه سبحانه وتعالى ، بنفس الطريقـه

أيضـــا ٠

ففى مثل هذه الحاله ، سوف يؤمن الذهن البشري بوجود علاقه بين هاتين الظاهرتين ٠ وان الظاهره الأولى لها ارتباط بالظاهره الثانيه ، إمّا علّه للظاهره الثانيه ، أو كلتاهما معلولتان لعلّه ثالثه بحسب اصطلاح الفلاسفه ٠

والذهن البشري ينفى افتراض أن يكون اقتران الظاهرتين من باب الصدفه ، ومن باب الاتفاق ، مع تكرار نفس الظاهره والنتيجه ، كظاهره تقارن الاحتراق بالنار ، أو التمدد بالحراره للفلزات ٠ بل يؤمن – الذهن – ويعتقد أن هناك علاقه بين الظاهرتين المتقارنتين ، ويستدل بأن هذه الظاهره علّه لتلك ، أو هناك نكته مشتركه تقتضيهما معا ٠

التى نثبت من خلالها الحقائق العلميه المجرده ، ولعلها المحاوله الاولى فى تأريخ الفكر الدينى والفلسفه الالهيه هذه التى ذهب اليها سيدنا الشهيد الصدر فقد استدل بهذا المنهج على اثبات وجود الله سبحانه وتعالى بنفس القوه والاسس المنطقيه التى يستدل بها لاثبات حقيقه علميه ربما تكون من المسلمات ، . .

وبهذا اوضح انه لايمكن الفصل بين العلم والايمان ، فاما ان ينكر الانسان كل النظريات العلميه ولايعتقد حينئذ ولا يحصل له تصديق وجزم بأى نظريه علميه مسلّمه وبديهيه ، أو اذا آمن بصحه الاستدلال والمنهج العلمى لاثبات أى نظريه بحيث تكون حقيقه من الحقائق العلميه ، فلابد ان يؤمن ايضا بنفس الدرجه – بل بأقوى منها – بالله سبحانه وتعالى ، لان الاساس المنطقى للعلم والايمان واحد وهو الاستقراء ٠

فلو افترضنا ، ان قطعه من الحديد بمجرد ملامستها للحراره ـ وبعد فتره زمنيه ـ قد تمدّدت وحصلت تلك الخواص والحالات المعروفه فقد نحتمل ،فى المره الأولى أو الثانيه أو الثالثه أو ... حصولها إتفاقا.

لكن مع تكرار الحاله والنتيجه ،وتكرار الأرقام، سوف ينفى الذهن البشري باب الاتفاق والصدفه هنا ، وسوف يعمّم الاستنتاج الذي حصل عليه من التقارن بين الظاهرتين ، وهذا الاستنتاج الكلى المستخلص من الظاهره المتكرره هو (المنهج الاستقرائى) ، والذي يدل هنا على نفى الصدفه والاتفاق ، فهذه الصدفه بالحساب الرياضى تكون منفيه لحدّ يبلغ حدّ الصفر فى النهايه ، حيث ان هذا الاتفاق له صور عديده ، قد يتفق فقط فى الصوره الأولى ، أو قد يتفق فقط فى الصوره الثانيه ، أو قد يتفق فقط فى الصوره الثالثه ، وهكذا ٠٠ أما افتراض أنها تتفق فى كل هذه المرات ، هذا الاتفاق فى نفسه فرضيه أو احتمال ، هو الذي يسمى بالصدفه النسبيه وهو الذي ينفيه المنهج العلمى ومنطق الاستقراء ٠

انّ الانسان عندما يأخذ أيّه عينه من العينات الموجوده فى الكون ، يأخذ خليه واحده مثلا من الكائنات العضويه ، أو جزيئه للكائن غير العضوى ،ويدقق فيها ، يجد ان ما تحتويه من التركيبات المعقده المقترنه بتكوينها ، تمتلك من الدّقه ومن الترابط المؤثر بين أجزائها ، ما يحمل الانسان على الدهشه والحيره ، ٠٠هذه الخليه لو

أردنا أن نرجع مكوناتها هذه الى الصدفه ، قد نفترض ان مكوناتها وظواهرها قد اجتمعت اتفاقا مع الظاهره الاولى والثانيه والثالثه ٠٠، بهذا الترتيب دون وجود أى مسبب أو أي مبدأ ربط بين هاتين الظاهرتين بوعى وادراك ، هذا الافتراض قيمته الاحتماليه ، واحد من ملايين من الاحتمالات ، والافتراضات التى تستلزم افتراضات ـ بحساب الاحتمالات ـ تبلغ الملايين ، تكون منفيه ٠

هذا المبدأ المنطقى والرياضي ينفى احتمال الصدفه والاتفاق للظواهر الأخرى ، بنفس الدرجه التى ينفى فيها اتفاق الظواهر المتعدده عشوائيا ، بالنسبه لتمدد الحديد أو احراق النار ٠ فنفى الصدفه لظاهرتين صغيرتين يقرّها الذهن البشري ، ولا يقول بوقوعها اتفاقا ٠ فكيف بهذه الظواهر الكونيه والطبيعيه وغيرها ، والتى لها من الدّقه والحكمه مالا يمكن للذهن الانسانى حصره وبيانه !

القرآن الكريم يشير الى هذه الحقيقه ، ويثبتها ، ويحاول ان ينبه الذهن البشري اليها ، عن طريق العديد من الآيات التى تشير لهذا المعنى منها :

(أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت • والى السّماء كيف رفعت والى الجّبال كيف نصبت • والى الأرض كيف سطحت)

(الغاشيه : ١٧ ـ ٢٠)

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

(يٓس : ٣٧ – ٤٠)

(افلم ينظروا الى السّماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج • والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج)

(ق : ٦ – ٧)

فهى دعوه تأمل وتفكر فى آيات الصنع والابداع والتناسق والنظم الموجوده فى الكون والخلق والطبيعه ، فان كل عينه من عينات عالم الوجود وما فيها من الابداع والنظم والدقه والتناسب ، يكفى لاثبات وجود مدبر حكيم ، استطاع أن يوجد ويخلق هذه العينه بوعى وادراك ، وكل الوجود قد أوجده بقصد وحكمه .

والامام (ع) فى نهج البلاغه يشير الى هذا المنهج كثيرا ايضا ، ويتعرض لمسأله اثبات وجود الله سبحانه من خلال هذا

المنهج ، ويوجه الذهن البشرى الى آيات قدره الله وابداعه فى الكون ، فهو (ع) يتعرض لخلق السماوات والارض والبحار والطاووس والنمله ، .. والى الكثير من آيات الابداع والدقه فى الصنع والايجاد ، ..

يقول (ع) :

(ولو فكّروا في عظيم القدرة ، وجسيم النّعمة ، لرجعوا الى الطّريق وخافوا عذاب الحريق . ولكن القلوب عليلة ، والبصائر مدخولة! ألا ينظرون الى صغير ما خلق ، كيف أحكم خلقه ،وأتقن تركيبه ، وفلق له السّمع والبصر ، وسوّى له العظم والبشر!

انظروا الى النّملة في صغر جُثّتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنَال بلحظ البصر ، ولا بمستدرك الفِكَر ، كيف دبّت على أرضها ، وصُبّت على رزقها ، تنقل الحبّة الى جُحرِها، وتُعِدُّها في مستقرّها . تجمع في حرّها لبردها ، وفي وردِها لِصَدَرِها مكفول برزقها ، مرزوقة بِوِفْقها ، لا يغفلها المنّان ، ولا يحرمها الدّيّان ، ولو في الصّفا اليابس ، والحجر الجامس! ولو فكرت في مجاري أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرّأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجبا ، ولقيت من وصفها تعبا! فتعالى الّذي أقامها على دعائمها! لم يشركه في فطرتها فاطر . ولم يُعِنه على خلقها

قادر . ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ، ما دلّتك الدّلالة إلّا على أنّ فاطرَ النّملةِ هو فاطر النّخلة ، لدقيق تفصيل كلّ شيء ، وغامض اختلاف كلّ حيّ . وما الجليل واللطيف ، والثّقيل والخفيف ، والقويّ والضّعيف ، في خلقه إلّا سواء)

ثم يضيف الامام (ع) :

(وكذلك السّماء والهواء ، والرّياح والماء . فانظر الى الشّمس والقمر ، والنّبات والشّجر ، والماء والحجر ، واختلاف هذا اللّيل والنّهار ، وتفجّر هذه البحار ، وكَثْرَة هذه الجبال ، وطول هذه القلال وتفرّق هذه اللّغات ، والألسن المختلفات فالويل لمن أنكر المقدّر ، وجحد المدبّر ! زعموا أنّهم كالنّبات ما لهم زارع ، ولا لاختلاف صورهم صانع ، ولم يلجؤوا الى حجّة فيما ادّعَوا ، ولا تحقيق لما أَوْعَوا ، وهل يكون بناء من غير بانٍ ، أو جناية من غيرِ جانٍ !)

(نهج البلاغة : خطبه ١٨٥)

فواضح ان الامام هنا ، يشير الى آيات صنع الله سبحانه وتعالى، وحكمته ودقيق ابداعه ، ثم يستدل من خلالها ، على وجود الصانع

والمدبّر الحكيم .

ويبطل بهذا اللون من الاستدلال ، آراء من جحدوا الخالـــق المدبّــر ، فنسبوا الخلق والوجود الى الصدفه أو الطبيعه .

تطبيقات للمنج الاستقرائى

فى خطبه للامام (ع) :

(واصطفى سبحانه مِنْ ولَدِهِ أنبياءَ أخذ على الوحي ميثاقَهُم وعلى تبليغ الرّسالةِ أمانَتَهُم ، لمّا بَدّل أكثرُ خلقهِ عهد اللّه اليهم فجَهِلوا حقّهُ ، واتّخذوا الأندَاد معَهُ ، واجتالتْهُم الشّياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله،وواتر اليهم أنبياءه ،ليستأدوهم ميثاق فطرته ،ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتّبليغ ،ويثيروا لهم دفائن العقول ، وَيُرُوهُم آيات المقدرة : مِن سقف فوقَهُم مرفوع ،ومِهَاد تحتهم موضوع ، ومعايش تُحييهم ، وآجال تُفنيهم ، وأوصاب تُهرِمُهُم ، وأحداث تتابَعُ عليهم ، ولم يُخْلِ اللّه سبحانه خلقه من نبيّ مُرسَل ، أو كتاب مُنزل ، أو حجّة لازمة ، أومحجّة قائمة رسل لاتُقَصِّر بهم قلّة عددهم ، ولاكثرة المكذبين لهم :من سابقٍ

سُقِّيَ لـه مَنْ بَعْدَهُ ، أو غـابر عرَّفَهُ مَنْ قبلـه : عـلى ذلك نَسَلَتِ القرون ومَضَتِ الدّهور ، وسَلَفَتِ الآبـاء ، وخَلَفَتِ الأبنـاء .

(نهج البلاغه : الخطبه الأولى)

فى هذه الخطبه يجمع الامام (ع) بنحو الاشاره بين ألـوان الاستدلال على اثبات وجود الله سبحانه وتعالى من الفطره والعقل والمنهج الاستقرائى بلحاظ العالم ومافيه من آيات المقدره والابداع الالهـى ، . .

وبلحاظ الانبياء ومعاجزهم وعددهم وسلوكيتهم وصفاتهم وأخلاقهم ، فان هناك تطبيقات عديده للمنهج الاستقرائى اولها وأهمها ، التطبيق الذي شرحناه حتى الآن ، واستعرضنا فيه الآيات الكريمه ، وكلمات الامام (ع) من نهج البلاغه .

وهناك تطبيقات أخرى لهذا المنهج ، بلحاظ الانبياء (عليهم السلام) الذين هم رسل الله سبحانه ، وحججه وآياته التى تدل عليه يشير اليها الامام فى هذه الخطبه ، . .

وهذه التطبيقات لهذا المنهج على الانبياء ، تكون بأحد ثلاثه وجوه :

التطبيق الاول

معاجز الأنبيـــاء

الاستدلال بالمعجزه ـ هو فى الحقيقه ـ من تطبيقات المنهج الاستقرائى ، فان الله سبحانه يجري على أيدى آنبيائه الكثير مـــن المعاجز ، والمعجزه فى الواقع ، دليل من أدله اثبات الله سبحانـه وتعالى ، واثبات صدق دعوى مدّعى النبوه ، وهو النبى الذي تجـري على يديه المعجزه ، ..

والمعجزه لاتعنى ايجاد مالا يمكن أن يكون ، وتحقيق أمر يكـون محالا عقلا ـ فمثل هذا المحال لا يمكن أن يقع سواء عن النبى أو عـن غيره ـ فهى فى حقيقتها ايجاد واجراء نتيجة وحدث على يد النبى ، وهذا الحدث مما لا يمكن أن يحصل ويتحقق بحسب حسابات الاحتمال، الاّ بنكته خارجـه عن الحسابات الطبيعيه ، فليست المعجزه ، بمعنى ان يقع شئ من دون عله ، فانه محال ، والمحال لا يمكن ان يتحقـق من أي شخص ، وانما المعجزه تعنى ان يكون هذا العمل أو الحدث

الذي جرى على يد النبي خارقا للعاده والمألوف ، وكونه خارقا للعاده ، يعني انه بحسب حسابات الاحتمال ، لا يمكن ان يكون هذا الحدث الذي يأتي به النبي ، قد حصل على اساس الطرق الطبيعيه المعروفه والمألوفه لدى الناس ، فلابد من نكته اخرى لحصوله ، وهي التي يدعيها صاحب المعجزه من اراده الله سبحانه وتعالى ... اراده عالِم الغيب .

والاستدلال بالمعجزه على صدق دعوى صاحبها تاره يكون على أساس قاعده عقليه ، هي من مدركات العقل العملي ، وهي ان الاعجاز لا يمكن ان يجريه الله سبحانه على يد انسان كاذب وهذا المنهج من الاستدلال الذي انتهجه بعض العلماء ، انما ينتج ويفيد على تقدير صحته في نفسه لاثبات النبوه لا الايمان بالله سبحانه لانه بنفسه متوقف على افتراض وجود الله سبحانه وتعالى في المرتبه السابقه ·

واخرى يكون على اساس ان ماوقع وجرى على يد النبي ، لا يمكن ان يكون الا بافتراض وجود الله سبحانه ، والا كان من قبيل وجود حادث بلا عله له ، فلابد أن تكون علته اراده الله ومشيئته ، والا كان من الصدفه المنفيه بحكم المنطق الاستقرائي والعقلي معا ·

وعلى اساس هذا التقدير تكون المعجزه بنفسها دليلا على اثبات الصانع ، والمبدأ الاعلى جل وعلا ·

التطبيق الثاني

تواتر الأنبيـــاء

انّ استقراء التأريخ يوضح لنا العدد الضخم للأنبياء فى المسيره البشريه وكذلك وحدة كلمتهم ومدّعاهم ، ويلحق به أيضا الترابط الموجود بين ما بشّروا به من الرسالات والديانات .

فهذا التواتر للأنبياء ، بنفسه حجّه ودليل على صدق دعوى بعثهم من قبل الله سبحانه وتعالى ، هذا وانّ الأنبياء (ع) كانوا من خيره الناس وأفضلهم وأكملهم ، وعيا وادراكا ورشدا وابتعادا عن الأهواء والحيل ، فعندما ينظر الانسان لهؤلاء الأنبيـاء ، هذه الكثره الكاثره التى تمتاز بالعصمه والكمال ، وكلهم يدّعون دعوى واحده ، ويبشرون بوجود اله واحد وينقلون عن هذا الاله الواحد ، الشرائع والرسالات ، حينئذ كل عقل سليم ، ومنطق استقرائى غير مظلل ، يقف أمام هذا الركب الهائل من الأنبياء ــ الذى يمثّل الصّفوه البشريّه ، والمناديه بحقيقه واحده ــ موقف المؤمن بصحه المدّعى اليه .

فعند ما نُخبَر من قبل عشره أشخاص ثقات مثلا ، بوقــوع أمر مـا نؤمــن ونعتقد بهذا القــــول ، فكيــف بمئــه وأربعـــه وعشرين ألف نبي ، هذا الركب المبارك ، والذي يمتاز بأروع الخصال الانسانيه واكملها وعيا ورشدا وعقلا ، وهــم ينادون بالتوحيد ، وان هناك الـها لهذا العالم ، وهو فوق هذا العالم ومن ورائه ، وانه هو مبدأ الوجود وأصله وبارئه ، كيف لا يحصل اليقين والتصديق والايمان هنا بصحــه مايقولـــون ؟ !!

فالمنهج الاستقرائى ، يجري هنا ايضا لاثبات حقيقه المبــــدأ الأول جلّ وعلا ٠

التطبيق الثالث

سلوكية الأنبيـــاء

إنّ ملاحظه مجموعـه الخصال والصفـات الحميد ه المتجسد ه في شخص النبي ، أيا كان ، والتي تنطق بالصد ق والصلاح والكمال في كل جوانبها ، وكذلك ملاحظه ما تدعيه هذ ه الشخصيه من دعوى ، ومـا تؤمن به من مباد ئ وقيم ومثل ، تكفي للدلا له على صحه ما تقول مـن وجود الله سبحانه وتعالى ·

فهذ ه الشخصيه الفذ ه ، والتي بلغت الذ روه في تطبيقهـا للكمالات الممكنه بحق البشر ، تكفي للدلا له من خلالها ، ومن خـلال دعواها ، الى اثبات وجود الله سبحانه وتعالى ، والتي ما انفكـت تركز على الايمان به ، والاعتقاد بوجود ه جلّ شأنه ·

وأكثر الذ ين آمنوا بصحه الرسالات والد يانات ، كانوا ممن تأثـروا بهذا الجانب من شخصيه الانبياء والرسل وعن طريق معايشتهـم لسلوكيتهم ، وما رأوه مـن حميد الصفات والخصال والاخلاق ، ومن

دلائل الصدق والصلاح فيما يدعونه ، ومن دلائل العظمه والرقي فيما جاؤوا به من شرائع وكتب ومقولات . فلقد لمسوا من خلال معايشتهم لركب الأنبياء ، وما كانوا يجدونه في رمزهم المبارك ، مما يدعم صحه ما يدّعونه . والاّ فالأدله الفلسفيه النظريه والبرهانيه التي يقيمها الفلاسفه وان كان كثير منها – أو بعضها – أدله صحيحه منطقيا وعقليا إلاّ أنّ الناس لا يركنون الى الايمان بهذه المبادئ الغيبيه من خلال تلك البراهين فقط ، وانّما أكثر الأدله شيوعا ، هو هذا الدليل الاستقرائي ، وخصوصا بالنسبه الى الأنبياء ، فان الانسانيه قد تربّت وصنعت على الايمان والاعتقاد بالله سبحانه من خلال الأنبياء (ع) ، وعن طريق التماس مع سلوكيتهم وأقوالهم وآثارهم .

وعليه فما كان يجده المجتمع المعاصر للنبي محمد (ص) بالخصوص ، من آيات الرشد والصدق والأمانه والنزاهه ، تلك الصفات الطاهره النقيه ، والسلوكيه الكامله المكمله والممارسات التي فوق قدره الناس ، كلها تؤيد صحه مايدعيه النبي (ص) من المقولات التي يطرحها حول الحقائق الكبرى في الوجود ، من التوحيد والنبوه وسائر المعارف الحقه .

فقد كان ذلك بنفسه دليلا وآيه تدل على صدق دعواه ، بل على عظمه مايقوله ويبشّر به .

هذه العظمه مستفاده ومستخرجه من خلال تلك السلوكيه الصادقه الطاهره التى يلمسونها فى شخصه المبارك ٠

فالتاريخ يروي لنا ، ان الرسول (ص) ، فى بدايه دعوته ، قد استفاد من هذه الحقيقه ، لتأييد دينه ورسالته ٠ وقف ذات يوم على مرتفع ونادى : ياأهل مكه ، اذا أخبرتكم ان وراء هذا الجبل عدوا يريد العدوان أو الاغاره عليكم فهل تصدقون ، ٠٠ قالوا بلى ، وانت الصادق الامين ، ٠٠ فقال : انى رسول الله اليكم ، ٠٠

هذا التصديق من قبل القوم ، جاء مباشره ودون أدنى تردد ، اعتمادا على تلك السلوكيه الكامله المجسده فى شخصه الكريم ، ورمزه الطاهر ٠ فالملاحظ هنا ، انه (ص) لم يطرح لهم أسسا عقائديه ، توضح ماهيه دعوته ، بل اعتمد على الرصيد الضخم الذي يمتلكه عند الامه ، من سمو الخلق ، وكمال السلوك ، وجعل هذه السلوكيه بابا لدعوته ورسالته ، دون الادله والبراهين والاستدلالات ٠

(أولم يتفكّروا ما بصاحبهم من جنّة إن هو إلاّ نذير مبين)

(الأعراف : ١٨٤)

ولا يقتصر هذا التطبيق على سلوكيه النبى (ص) الشخصيه بل

على سلوكيته الرساليه والسياسيه ايضا ، فان المسلمين من خلال تفاعلهم مع النبى كقائد وكصاحب رساله ومهمه اجتماعيه تغييريه ، وما كان يطرحه فى هذا المجال من مقولات وقيم سياسيه واجتماعيه يسعى الى تحقيقها وانجازها فى واقع الامه ، وواقع الحياه ، وماكان يتبناه تجاه مستقبل الرساله والتجربه الرساليه ، بل ما كان يمارسه فى القياده على افضل وأحكم صوره ، وماكان يراه الناس من واقعيه فى الارتباط بينه وبين الله سبحانه وتعالى فى خضم التجربه الدقيقه ، كل ذلك أوجب اذعان الناس لا بصدق واخلاص النبى (ص) فيما يدعيه فحسب ، بل بعظمته واعجازه فى كل تصرف من تصرفاته ، واثر من آثار وجوده المبارك . والواقع ان هذه المعايشه والمشاهده هى اساس ايمان البشر بالانبياء ، ورسالاتهم . فالناس يتفاعلون مع الواقعيات ويتأثرون بالتطبيق والتجسيد اكثر مما يتأثرون بالادعاءات والنظريات ، ولا اشكال فى ان نجاح الانبياء وموفقيتهم فى ايجاد التحولات والتغيرات الاجتماعيه الكبرى فى تأريخ البشر وانتصارهم فى صراعهم السياسى مع الباطل والطاغوت ، وتحقق طموحاتهم ومدعياتهم فى حياتهم او بعد وفاتهم واصرارهم البليغ على متبنياتهم ، كل ذلك له الاثر الابلغ فى كسب الناس لهم ، وايمانهم بهم وبمدعياتهم ومقولاتهم .

المنهج الفلسفي

المنهج الفلسفي للاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى ، له تقريبات وبيانات عديده ، ينطلق كل بيان منها من نقطه خاصه بالرغم من اشتراك كل هذه التقريبات في روح الاستدلال وجوهره الاساسي ، حيث تعتمد جميعا على مبدأ العليّه .

التقريب الاول

دليل الامكان

وهو ان الشئ أما واجب الوجود او ممتنع الوجود أو ممكن الوجود ، ولا اشكال في وجود الاول وامتناع الثاني ، واما الثالث وهو ممكن الوجود ـ الذي يكون كل من وجوده وعدمه سواء ـ فوجوده بحاجه الى مرجّح يخرجه عن الامكان الى الوجوب بالغير ، أي بالعله

والاّ يلزم الخُلف ،وهذا هو معنى القاعده المعروفه (ان الشيئ مالم يجب لم يوجد) ،فاذا ثبت فى حق موجود أنّه ممكن الوجود ،ثبت أن له موجدا قد أوجده ،والعالم بما فيه من تغيرات وحدوث بعد عدم ، ممكن الوجود لا محاله ،لان الواجب لا يكون متغيرا ،فلابد له من موجد وعله ،وهذه العله يستحيل ان تكون لها عله أخرى وهكذا ،لانه يلزم أما الدور أو التسلسل وكلاهما محال ، . .

فالدليل الأول يتألف من الصغرى والكبرى ،الصغرى ان العالم وما فيه من المشهودات والمحسوسات ،عالم متغير فهو ممكن . والكبرى ان كل ممكن لا بد له من عله ،حسب قانون العليّه . واستفاده من هذا التقسيم الثلاثى للأشياء (الواجب ،الممكن ،الممتنع) ،فلابد أن يكون لكل ممكن عله أوجدته وأوجدت كل هذه الممكنات المتغيره .

التقريب الثاني

دليل الحركة

وينطلق فى اثبات وجود اللّه سبحانه وتعالى ، من صغرى أخرى وكبرى مشتركه بين نفس الكبرى فى دليل الامكان ٠ وهو ان كل ممكن بحاجه الى عله ، ٠٠ الا ان الصغرى تختلف هنا ، حيث تطبق الكبرى ـ كبرى دليل الامكان ـ والتى هى عباره عن مبدأ العليه

على الحركه ، فلااشكال ان فى عالم الوجود ألوانا متعددة من الحركه ، اما حركه مكانيه ، او حركه زمانيه ، او حركه كيفيه ، او حركه نوعيه ، .. فالوجود المادي الممكن يزخر بانواع من الحركه ، وهذه الحركه لا يمكن ان تكون من دون محرك ، فلكل حركه محرك ، وهذا يكشف ويدل عقليا وفلسفيا على وجود محرك وهو الله سبحانه وتعالى .

التقريب الثالث

دليل التكامل

ينطلق هذا الدليل ، من قاعده بديهيه ومصادره عقليه ، وهى ان فاقد الشئ لا يعطيه ، فهذه القاعده الفلسفيه ، يستند اليها فى اثبات الله سبحانه وتعالى بتقريب ان الموجودات متكامله ، ومتفاوته فى سلّم التكامل ، فالكائن العضوي أكمل من الكائن غير العضوي ، والنبات أكمل من الجماد ، والحيوان أكمل من النبات ، والانسان أكمل من الحيوان ، ..

هذه الحركه التكامليه هنا بحاجه الى عله ، فالتقدم والتكامل فى سلّم النمو والحركه ، لا يمكن ان يصدر عفويا ، فهو تكامل هادف ، ويستحيل ان يتحقق من دون توجيه وتخطيط من مبدأ الكمال ومصدره وهو الله جل شأنه ، فالكائنات والموجودات غير العضويه مثلا لا يمكنها

أن تهب الحياه والتكامل نحو الافضل ، لانها فى نفسها فاقـــــد ه للحياه ، فكيف تولد مرتبه أسمى وأرقى ؟ !!

اذا بحسب قاعده ان فاقد الشئ لا يعطيه ، نستدل على وجود كائن آخر ، هو الذي يهب هذه الحركه التكامليه ، ويأخذ بزمـــــام الممكنات نحو مدارج أكمل ، ومنازل أرقى وأسمى تتناسب والحكمـــــه الموضوعه ، ٠٠ وهذا الكائن هو عين الكمال ، وعين الحياه ، وعيـــن الحكمه والعلم والقدره ٠

***

ماتقدم من التقريبات والادله ، تعتمد نقطه مركزيه ، ومقدمـــــه اساسيه ، وهى ان الوجود بمختلف مراتبه لا يمكن ان يحدث مـــــن لا شئ ، وقد عبّر الامام (ع) عن هذه النكته بقوله :

(هل يكون بناء من غير بان ، أو جناية من غير جان)

وهى اشاره الى مبدأ العليه فى قاموس الوجود ٠

حقيقتان .. هما الجوهر

الحقيقة الاولى إنّ هذه المناهج الثلاثه ـ الفطرى والاستقرائى والفلسفى ـ توجب حاله من اليقين والتصديق بوجود الله سبحانه وتعالى لكل متأمل ومتعقل صادق ، همّه البحث عن الحقيقه والكنه . فهى تدلّه بوضوح على مبدأ الكمال ٠٠ على الأزل والحكمه والقدره ، ٠٠

الاّ ان هذا ليس كل الهدف ، وكل الايمان والمعرفه ، فان الاسلام لا يريد من الموحدين سبر غور الادله والبراهين على وجود اللّه سبحانه ، كالذي يبتغيه الفلاسفه والمتكلمون ، بل يريد حقيقه الايمان ، تلك التى تستقطب آمال وتوجهات الانسان ، أي ان يعيش الايمان بقلبه وروحه ، لا بفكره وعقله فقط ، ان يخالط هذا الاعتقاد كل جوانحه ، فلايتفاعل ويتجاذب الا من خلال هذه النافذه ، أي النهىّ فى الفكر والاعتقاد ، والنهىّ فى السلوك والمواقف والآمال .

ومثل هذا الايمان ، هو الذي يصنع الانسان ويربيه على حقيقه مقولات السماء ، وبه يستكشف بواطن الحقائق ، ويسبر ماهية الوجود، ليصل الى منهل المعرفه الحقه ، ..

وهذا ماأكدت عليه الشرائع والرسالات السماويه فى محاولتها لربط الانسانيه بهذا البعد الثانى من المعرفه ، .. فان هذا اللون من المعرفه هو الضمان الوحيد لاستقامه المسيره البشريه ، لانه يرتبط بالجانب الحى من الحقائق ، الجانب الذي يؤثر سلبا أو ايجابا على كل مفردات الحياه فى حاضرها ومستقبلها فالرسالات وحملتها الابرار ، لاتريد معايشه نظريه للمفاهيم والمبادىء ، ساحتها الذهن المجرد ، بل تريد للمفاهيم والقيم والحقائق ، أن تفترش بيداء القلب ، وتملك عقال المشاعر ، .. فيعيش الانسان الفكره ، نظريا ويتجاذب ويتفاعل معها عمليا ، أي تكون فكره اعتقاديه وسلوكيه تحاكي عقله ، وتناغي مشاعره واحاسيسه .

الانبياء ((عليهم السلام)) يضمنون لنا هذا البعد ، فهم يدلّون السائرين على المعرفه الحقه بالله سبحانه ، ويرسمون أمامهم السبل بوضوح، ليرتفعوا فى سلّم العرفان ، .. بخلاف الفلاسفه ، فهم يتعاملون ويتجاذبون مع العقول ، لامع القلوب . واحكام العلاقه مع العقل دون القلب ، أمر خطير سرعان مايفصل الامه عن حقلها العملى فى ممارساتها الحياتيه ، فتكون أمه معتقده ، لكنها خاويه

راكده ، ضعيفه الاراده والموقف ، ٠٠ أمه تدرك الاطار دون المحتوى والمضمون ، أي أمه قشريه جوفاء ٠

***

الحقيقة الثانية هناك حقيقه أخرى جليّه ، تشكل نقطه فارقه بين منهج الأنبياء (ع) فى التربيه والصنع ، وبين منهج الفلاسفه مفادها ان الأنبياء (ع) لا يطرحون فكره وجود الله والايمان بالغيب طرحا جافا حديّا ، بل تطرح بشكل عاطفى عملى ، ٠٠ بخلاف الفلاسفه ، فهم يطرحون المقولات ، بشكل فلسفى ، تشعر المرء ان هذه المقولات من سنخ آخر مجرده عنه وعن عالمه ، بعيده عن الاثر العملى ، فى حين ان الانبياء يضيفون الى علاقه المعرفه ، علاقه المحبه والود ، ٠٠ والقرآن يجعل الصله بين الانسان المؤمن الموحد وبين الله سبحانه ، صله محبه ((يحبهم ويحبونه)) ، ٠٠

ولا يكتفى القرآن والانبياء (ع) ، بان تطرح المبادئ ، طرحا نظريا مجردا ، بل تطرح مع علاقات انسانيه وروحيه خاصه ٠ هذه العلاقات تجعل لهذه المعارف والقيم والنظريات مدلولا عمليا ، لأنّ الانسان فى الواقع لا يدفعه الى الأعمال والمواقف ، النظريات المجرده . فالانسان ليس عقلا مجردا ، تخضع حركاته وسكناته ومواقفه لهذا العقل المجرد فحسب ، بل تنشأ أيضا من مجموعه

العواطف والاحاسيس والمشاعر ، . . المدركات العقليه ، لا بـد أن تنزل لعـالم القلب والرغبه والميل ، كيما تحرك الانسان الى اتخاذ موقف معيـن ، ولهذا يقول الفلاسفـه ، ان الاراده تعنى الشوق المؤكـد ، . . هذا الشوق المؤكد لا بد أن يكون وراء كل حركه وفعل وموقف وسلوك يصدر عن الانسان ، فاذا بقيت النظريات التوحيديه ، مجرده وبعيده عن عالم القلب والعاطفه ، عندها لا تكون مربيه وصانعه للانسان ، بل مجرد أفكار عالقه فى الذهن .

أضف الى ذلك ان الفكر المجرد ، لا يجعل المؤمن به ، يُقْـدِم على صنوف التضحيه والفـداء لمجـرد الايمان بالفكـره ، . . إنّما يضحى ويجاهد ويكافح ؛ عندما تكون الفكره مشحونه بالموده والحب ، . . ولقد ورد فى بعض الروايات انّه :

(هـل الـديـن الاّ الحـب)

فلابـد أن يكون لهذه المعارف رصيد حقيقـى قلبـى لدى كل انسان موحّد ، ولولا هذا لَما رُبّى الركب البشـرى الصالح ، ولَمـا قدّموا كل تلك التضحيات من أجل رسالتهم ومن اجل البشريه .

اذا فالفارق بين مجموعه الانبياء (ع) والفلاسفه ، يكمن فـى

اسلوب العرض والمخاطبه ، فبينما تراعى المجموعه الاولى مخاطبه ومناجاه العقل والقلب الانسانى ، ومحاكاه العواطف والمشاعر ، يتجه الفلاسفه لمناغاه العقل والفكر دون القلب والرغبه والميل ، فاستطاعت الاولى تربيه وهدايه الانسانيه بينما عجزت الثانيه عن ذلك بالرغم من ان لها المريدين والاتباع ، وأخفقت فى تربيتهم وصنعهم .

وهناك قصه تشير للمعنى المتقدم : ـ

يقال ان أحد تلامذه ابن سينا ، سأله يوما ، مالفرق بين الفلاسفه والانبياء الانبياء انما جاءوا من أجل ان يبشروا بفكره التوحيد ، ويجعلوا الناس موحّدين ومؤمنين بالله سبحانه وتعالى ، والفلاسفه الموحدون قاموا ايضا بنفس هذا الدور ، فما الفرق بينك وانت من كبار الفلاسفه الموحدين ، الذين اثبتوا نظريات التوحيد بأفضل وأدق البراهين والاستدلالات ، وبين النبى (ص) وكيف انك لم تصبح نبيا ، .. ؟ الآ انّ ابن سينا لم يجب على سؤال تلميذه الا بعد فتره ، كانا معا فى سفر للذهاب الى بيت الله الحرام ، فى فصل الشتاء ، وقد كانوا فى ليله من الليالى فى كبد الصحراء ، قد ركنوا الى مكان ليس ببعيد عن قريه من القرى ، .. وفى منتصف الليل أو قبيل طلوع الفجر ، استيقظ ابن سينا وكان عطشانا يطلب الماء ، فايقظ تلميذه ، وسأله أن يجلب الماء له من تلك القريه ، ..

فتماهل التلميذ ، واعتذر بأن البرد شديد .. لننتظر حتى الصّباح . أكد عليه ابن سينا كثيرا فى الطلب ، .. وكان التلميذ يأبى ، وبين الاخذ والرد فى الحوار بين الاستاذ الفيلسوف والتلميذ أذّن المؤذّن لصلاه الصبح ، وارتفع صوته يشق أستار الصمت .. ، فقال ابن سينا لتلميذه ، الآن حان جواب سؤالك القديم ، فالفارق بين الانبياء (ع) والفلاسفه ، ان النبى (ص) وبعد هذه القرون الطويله ، وبرغم هذا الفاصل الزمنى الكبير ، يحرك الانسان المؤمن ، على ان يخرج فى مثل هذا البرد الشديد ، وفى مثل هذه الساعه من الليل من رقدته ، ليرتقى المأذنه ويؤذن ، .. بينما أطلب منك ، وأنا بعد حى ، ان تأتينى بالماء ، فتعتذر بالبرد الشديد ، ..

الفارق هنا يكمن فى مدى فاعليه المفاهيم والمبادئ فى النفس الانسانيه ، أتكون مجرد مفاهيم تفترش ساحه الذهن ، وتمتطى العقل فى التناول والتفاعل كما يريدها الفلاسفه أم تكون فاعله حيّه فى العقل والقلب والعاطفه ، تمتلك اعتقاد وسلوك وتوجهات وآمال الانسان نحو الاهداف الساميه ، كما يبتغيها الانبياء (ع) فى منهاجهم التربوي .

- تتضمن هذه السلسله ((هدى الإسلام))
العديد من المفاهيم التى تتناول الفكر والمعارف الإسلامية ، من خلال ما يخطه الكتّاب الأفاضل من بحوث ودراسات تضيف لقاموسنا الفكري إشراقات جديده على هدي الإسلام .

آملين أن تكون المشاركة جادّة وواعيه في هذه الحركة الدائبة التصاعدية للفكر الإسلامي المنبعث والمطروح كقوّة فكرية وحضارية معاصرة .